أدب الصومعة وأدب الحياة

مقدمة الصنّاجة(١)

بين دالية أبي العلاء (غير مجدٍ) ، و (رباعيات) الزهاوي ، و (مواكب) جبران ، و (صنّاجة) الرياشي نسب وعرق متين . فهي على الجملة قنوط من العيش ، وملل من السعي ، وتضاحك بالناس . فكأن هذا الفرع من الأدب العربي شيء على حدة ، لا صلة بينه وبين الآخرين !

ويتلاقى على الفرع الجديد شعراء من كل صوب فسرب من ضفاف (دجلة) وسرب من مشارف (المهجر) يضاف اليهم شعراء ما برحوا زغب الحواصل . فلم يعتلوا الجو بعد ، ولا تجاوبت الجهات بأصواتهم ، بل تسمع لهم بين الفترة والفترة هتفات تجيء بها الريح وتذهب

وإنك لتعجب حين تدري ان ذلك الفرع العربي الذي نبت — او كأنه نبت — على جوانب (اللزوميات) لم يستقم ساقهُ في الماء ، ولا خرج شطؤه على مادة الشجر ، فهو غراس عجيب ، طلع في (المعرة) ، واورق في (نيسابور) . فكأنما نبت في (دهاليز) ابي العلاء ، ومال على (بساط) الخيام بالظل والزهر ! فقل في ذلك الفرع الاعوج : غراس تسقيه الماء عربيًّا ، فيخرج الزهر فارسيًّا . كاحدى الشجرات في حقلك ، على الحد : همها عليك ، وظلها على جارك . . .

●●●

وذلك الفرع لم يتبدّل على الازمنة . فهو منذ ما مدّ الخيام بساطه الى يومك الحاضر شيمة واحدة . نفث للناس كما رأيت ، وهزؤ بالحياة ، واطلاق النفس على الهوى ، وتباعد عن المعترك حتى لتحسب ان الدنيا خلقت لواحد : فبينا أنت من يومك حيث تعجّ الدنيا العريضة بالغادين على العيش ، وتزحم المناكب المناكب ، اذ الواحد من الجماعة يناديك من بعيد وهو في مثل كوة الصومعة . فتدهش لذلك المتخلف عن ركب الحياة ، تسائل نفسك ما شأنه ، وما تخلفهُ في آخر الخلائق ، وما يصنع بعمره ، وينتفع به ! !

فتجد صاحبنا تمد الصومعة ، عطول النزعة . همّه من الدنيا بساط عشب ، وكأس خمر ، وساعة من حبيب — وعلى كل شيء بعد ذلك العفاء !

ولعمرك كيف يتبدّل (أدب الصومعة) هذا ، وقد ساقيه على مجبوحة ، ومجاله اضيق من قيد الشبر ! ! فهو أشبه ما يكون بمخيلة (مانه) على قول (زولا) :

— (مانه) عصفور صغير ، على غصن صغير ، في ربيع عمره خمس دقائق . . .

---

(١) الصناجة ديوان شعر للأديب اللبناني تيلال الرياشي والمقدمة للشاعر اللبناني امين نخله

وهكذا (أدب الصومعة) لفّ ودوران على غرض أيسر من ان يحسب في الهموم فلا غوص على النفس، ولا تطلع الى محجّب من وجوه الحياة، ولا كدح في صعيد الفكر وراء الحق والجمال. فاذا جاد حبيب بساعة، وامتلأت كأس براح، واخضرّ مطرح بعشب، قامت الدنيا في نظر الجماعة، واستراحوا حيث تتعب العقول!

ولقد أشرفت الدنيا على آخرها. و (أدب الصومعة) في موضعه لا يتحوّل. فلا مدّ اذناً بعد (الخيام)، ولا اطرح عيناً، ولا سرح اصبعاً: فالقصة ان شاعر الفرس بعد ان جاب فكره الأرض والسموات، وأوفى على الامر، برّح به الكد، فأطلق في وجه الحياة رباعية حرى، عذره بها عذر الفترة التي تعم النفس بعض الاحايين ثم تنجلي. فتعلق اولئك على الرباعية (السوداء). وحسبوا أن تلك النفثة غاية الرجل من الفلسفة، وجماع رأيه. ومعاذ (ابي الفتح) عمر، وهو نادرة فارس في الحكمة والطبيعيات والفقه والتكليف والتاريخ وعلوم النجوم ان يقصر العيش على هبوط الطبع، وانتكاس النفس!

فأهل الأدب متعثر عليه بتلك النفثة الثانية. تتحوّل العقائد، وتتراءى الأغراض، وتتسع شقة الفكر البشري، وهو المعلق في مكانه!

***

و (أدب الصومعة) أدب الحب والطبيعة، في زعم أهله. فلذا جئتهم تسأل لساناً واحداً يبحث الحب والطبيعة، كأنْ يذكر لك مثلاً علاقة الطبع بالحماسة، او رابطة النفس بالطبيعة في شيمة من شيم الخلقة فانك تطلب ريشة العنقاء!

فالجماعة كندامى (المجوس) يحتسون الخمر بالنظر، وينشقون الزهر باطراف الاصابع!

***

ان الادب الحق غير ذلك!

هذا (شكسبير) وهو نادرة الازمان، تكاد العيون اليوم تتنمر على اوجه، ويكاد المتشددون يهمون بالقول ان «الشكسبيرية» على شفا. فسقوطها اقرب مما في الحسبان. ذلك ان الادب «المطنب» الذي لا ينغمس في معمعان الحياة حتى الركبتين، اصبح مزلزل القدم في جيل «التبسط» من هذا!. وبوادر «الشعرية» «الادبية الجديدة» ما ترى في الادب الفرنسي مثلاً من تنكب عن الدرب، حتى ليستطيع امس كاتب ناشيء «كلورين» ان يضحك على انف «كورنايل» فيقول فيه «منم التماثل الآكه»، ولا تقوم القيامة...

وكما يقال في الادب يقال في الموسيقى، وفي التصوير، وفي التمثيل، وفي مختلف الفنون «فرونه» آية الجيل الولي عند الفرنسويين، لا يكاد يذكر بشفة في فجر «الكيبزم» المنالع. ويكاد «وغنر» يخفت صيته في ضجة «الانطلاق» التي يثيرها «فان دونغن»

و « رينالدوهن » فلقد اعقب نسق الدقائق في الرسم نسق الجملة ، واعقب التبسط في الموسيق التماسك . وبكلمة اخرى ، فالفنون اليوم تتنزل من رفرف التأله الى مستوى الناس . .

فاذا جاز ان يقال هكذا في « شكسبير » و« كورنايل » واضرابهما من اصحاب المتعات في فهرس الفكر البشري فكم يجاز — بالتمليك — ان يقال في زمرة « الخيّاميين » المساكين !!

***

قال « پول ڤاليري » يوم رفعت القبة عن قبر الجندي المجهول في باريس :

« على اصحابنا — يعني اهل الادب — ان يستيقظوا ! فقبر الجندي المجهول قصيدة تخرجها الحياة على اتم ما يكون ، دون ان تفتقر الينا فتتلاق تحت القبة قلوب الفرنسويين من كل حدب ، ترف على البلاطة ، وتحوّم علايين الاغراض المتفرّقة ، من الف المشاعر الى يأسها . . . فاذا انطلقت الحياة تخرج للناس في غيبة الادب وتقصيره امثال هذه القصائد الوافية ، فما حاجتهم الى الشعراء !! »

فعلى الادب ان ينزل الميدان . عليه ان يغشى الحياة ، ويدخل من الابواب ومن النوافذ ومن شقوق الحائط !

ان الادب مرآة الحياة ، يحاطها عباله ، واطارها اطاره . فكل ادب لا يتراءى فيه وجه الحياة عن تمامه ، فهو مرآة ناقصة ، طرحها اخلق من الابقاء عليها وكما ان الحياة فسرة واعنات وتصعيد وتصويب ، كذلك يجب للادب . فيكون عليه غبار الكد . فمن المحصل ان الصحولة لا تقذف اللؤلؤ ، ولا تشق الاصبع عباب اليم . ومن العبث ان لا يجعل الادب في تقليد الحياة ، حذوك الشيء بالشيء . فعظام « اوسكار وايلد » بليت في ترابه ، وبلي معهُ قوله « الحياة تقلد الادب ، والادب لا يقلد الحياة »

والادب تأدية رسالة . عهدهُ في الله : الحق والجمال . ففي العهد ان تؤدي الرسالة وهي تقطر بدم القلب ا كدّ على الحق ، حتى يتمشى بياض الصحيفة من البرهان . وهوى للجمال حتى تتفتق قصبة القلم من الوله !!

هذا هو الادب . وذلك شأنه في الميدان . اما أن يظل المتشي على الحافة ، في رباعيات (الخيّاميين) وخماسياتهم وسداسياتهم الى آخر الحساب ، ينظر من بعيد ولا يلقي قدماً ، فالحياة براء منهُ

***

ذلك ، فضلاً عن انه « ادب الصومعة » غريب في عقر داره . فهو يتهالك في التباعد عنا ، تقرّباً الى ذوق الفرس القدماء من جيل الخيّام . تراهم يطبعون اذواقهم على الفارسية العتيقة . يتخذون لها المقاطع مقطّعة من كل وزن ، وبياض الصحيفة صراوات وحيية بين البيت

والبيت ، حتى لقد كاد باعة الورق يدّعون انهم انصاف ادباء ، محتجّين بذلك علينا ...

وتراهم يخرجون الدواوين في طائفة من الصور ، تقليداً « لأجيال الخيّامين » فقد اجمع مترجمو « الرباعيات » على انها وجدت في صور ترمز اليها . وتراهم يزرون بالاوضاع ، ويعبثون بالتقليد الكريم ، شأن الخيّام ، وقد ازرى بالفارسية وعبث بتقاليدها يوم الرباعيات

إن شرط الادب قبل اي شيء ، ان يكون ، في الاول ، من نصيب الامة . تؤدّ اليه بكلفة مرفوعة وسبيل ممهد . وان يغدو صورة صحيحة في تاريخها ومشاعرها وعقائدها

وشرط الصدق في الادب ان يصدر واحدنا عن ذات نفسه ، وعن بيئته ، فلا يكون منّا ، ولسانه مثلاً يلملم علينا من خلل (الرباعيات) الاجنبية !

وشرط التلاقي بين الادب والفن على صنيع واحد ، ان تكون الريشة في دورها والقلم في دوره . لا ان تطغى الريشة على القلم . فيقصر الادب ، ويقوم الفن بالدورين . اذ الادب ادب لا يزيده الفن شيئاً على الحلك ، ولو تولاه (ليونار ده فنسي) تنسه بالف (جوكوندا) ؟

وشرط الاجادة ان ترضي الاوضاع عن النتاج . فلا يقطع الواحد حبل الابد ، وينطلق على رأسه . ففي الادب سباق هو الحسن على كل جيل . شرط المضمار فيه ان تذهب الجياد في شوط واحد . لا ان يند الجواد عن فوجه ، وينفرط التسابق !

***

هذا من جهة الغرض . واما من جهة الصناعة ، فبيننا وبين الخيّاميين ، خلاف تنادي به على السطوح ! فنقول نحن بالخاطر الشائع ، في الصنيع الفني ، من المستهل الى المقطع ، حتى تغدو القصيدة « قطعة » واحدة ملمومة الاطراف . لا افراط بها ولا تمرّيط . وبالمعنى الذي يسكن المبنى ، فينصب الماء في ذوقنا ملء الاناء . معنى واحد في مبنى واحد ، لا الف اناء لقطرة ماء ...

ونقول بالاداء السريّ . فالديباجة شرط مقدم . اذ ان الصنيع الفني ينهض بجناحين المعنى من جانب ، والمبنى من جانب . والادب بيان . فكيف يصلح الأصبحاً ظاهر البهجة مدقّق الرونق ، حتى لقد تتندد نفر من اصحابنا « فاحصوا » انتفاضة الحياة في اللفظة الواحدة — ونعم التندّد !

ونقول بالميسم المطبوع . فيكون على الصنيع الفني نفس صاحبه يكاد القارىء يتبيّنه من الرائحة ... فتسلم الاعراض في الادب ، ويتسع لكل نفث من بنات الافكار والدم !

تلك رأينا في الصناعة . واما رأي الخيّاميين ، فتقطيع الاوصال في « الوحدة » الفنية . وكيل الالفاظ في المعنى ، والعبث بالمبنى . والتقليد في البهجة حتى ليقبل واحدهم ، على رشاش من ريق الف قائل ... وعفا الله عن الباقي !